ملخص كتاب "مشكلة الشر ووجود الله"

الرد على أبرز شبهات الملاحدة

تأليف: د. سامي عامري

تعدّ مشكلة الشر هي المشكلة الفلسفية الأبرز والأكثر انتشارًا في الخطابات المناهضة للدين ولذا يأتي كتاب "**مشكلة الشر ووجود الله**" لمؤلفه الدكتور سامي عامري، ليعالج أهم شبهة إلحادية في السجال بين المؤمنين بخالق والدهريين، وقد صرح كثير من أئمة الإلحاد أن شبهة الشر هي سبب إلحادهم، وهي الحجة الأثيرة في الكتابات الدعائية الفلسفية لكبار الفلاسفة الملاحدة من غير تيار "الإلحاد الجديد"، **فيعد "الشر" _استقرائيًّا_ اليوم هو السؤال الإلحادي الأول.**

ويوضح المؤلف أن موضوع هذا المبحث العقدي/الفلسفي هو عدل الله، وبدقة أكبر: بيان أن الشر الموجود في العالم لا يمنع من الإقرار بوجود إله. ويدخل هذا المبحث في الدراسات الكلامية الإسلامية في أبواب متعددة، منها: صفات الله، وإرادة الله، وخلق أفعال العباد، وهو عند المعتزلة في باب "القبيح".

وهو من ناحية إحاطته بموضوع الشر يجيب على مجموعة من الأسئلة، هي:

1) **أصل الشر:** كيف ينشأ الشر؟ ومن المسؤول عنه؟

2) **طبيعة الشر:** ما هي أنطولوجية الشر (حقيقة وجوده)؟ وكيف يوجد؟

3) **مشكلة الشر:** كيف يشكل الشر مشكلة لاهوتية (أي: متعلقة بذات الله= الوجود والصفات)؟

4) **سبب الشر:** لماذا يسمح الله بوجود الشر؟ ما هو السبب الأخلاقي المعقول لوجوده؟

5) **نهاية الشر:** كيف سينهي الله الشر و/أو كيف سيستخرج في ختام الأمر من الشر خيرا؟

ومن الممكن حصر الأجوبة الكبرى على مسألة وجود الله ووجود الشر في أربع مقولات:

- **وحدة الوجود:** إنكار وجود الله سبحانه، وإنكار وجود الشر، وهو مذهب عدد من الفلاسفة والمتنسكة في بعض الأديان.
- **الإلحاد:** إثبات وجود الشر وإنكار وجود الله.
- **الثنوية:** إثبات وجود الشر، ونسبته إلى إله غير إله الخير، وهو مذهب المجوسية والمانوية والكاثارية وجمهور الغنوصيين.
- **المذهب الإلهي:** إثبات وجود الله سبحانه، ووجود الشر، ونفي مصدر إلهي خاص بالشر.

ويبين المؤلف أن أصل الاستشكال الذي يطرحه الملحد المشكك (الذي يريد فتنة الناس عن عقيدة الإسلام أو عقيدة الإيمان بخالق) والمتشكك (المسلم أو المؤمن بإله، غير القادر على دفع الشبهة عن نفسه) هو الجمع بين العناصر التالية بصيغة توافقية لا ينفي بعضها بعضا:

1. **وجود إله كامل العلم.**
2. **كامل القدرة.**
3. **كامل الرحمة.**
4. **وجود الشر في عالم الإنسان.**

فوجود الشر في العالم يتنافى مع أن يكون هذا الرب عليما؛ لأن علمه يقتضي أن يمنع هذا الشر من الوجود، ويتنافى مع أنه قدير؛ لأن قدرته تقتضي أن يمنع هذا الشر من

الوجود، ويتنافى مع أنه رحيم؛ لأن رحمته تقتضي أن يمنع هذا الشر من الوجود. ولذلك فإن وجود

الشر ينفي وجود هذا الإله الذي لا يمكن أن يفتقد الصفات الثلاث السابقة جملة _في تصورهم_. **إن هذا التصور النابع من التفسير المادي الأصم مغرٍ في بساطته الظاهرية.**

وقد ردّ المؤلِّهة من أصحاب الأديان على إشكالات الملحدين ببيان سيّال، وهم على واحد من مسلكين في دفع شبهة الشر كحجة لنفي وجود الله، أولهما: الخيار الثيوديسي[1]، وثانيهما: الخيار الدفاعي[2]. أما "الثيوديسيا" فهي متعلقة ببيان السبب (أو الأسباب) التي سمح الله لأجلها للشر بالوجود، فهي تسعى لبيان الحِكَم الإلهية لوجود الشر، في حين أن "الدفاع" هدفه بيان أن استدلال الملحد على وجود تضاد بين صفات الإله ووجود الشر غير سليم، أو أنه لا يعدو أن يكون مغالطة منطقية.

وقد تخلى معظم المفكرين النصارى والفلاسفة عن البحث عن حل ثيوديسي لمشكلة الشر، ورأوا أن يقنع المؤمن بدفاع يرد عن الإيمان تهمة التناقض، ببيان عجز الملحد عن أن يقيم حجة متماسكة تقوده إلى نفي الإله، وذلك بإثبات أن وجود الشر لا يعني ولا يؤول إلى إثبات عدم وجود إله، وأن أقصى ما يمكن الوصول إليه منها هو عدم كمال رحمة الإله أو عدم خيريته.

---

1 **الثيوديسيا** أو **نظرية العدالة الإلهية** أو **العَدالةُ الإلهيَّة** أو **عِلْمُ تَبْرِير العَدالَةِ الإلهِيَّة** أو **إثْبات العَدالَةِ الإلهِيَّة** أو**معضلة الشر** أو **مسألة وجود الشر** هي فرع محدد من الثيولوجيا والفلسفة يهتم بحل مشكلة الشر.

2 **اللاهوت الدفاعي**)المعروفة أيضاً بالتبريريات) هو مجال اللاهوت المسيحي الذي يهدف إلى تقديم أساس عقلاني للإيمان المسيحي والدفاع عنه ضد اعتراضات من خلال فضح العيوب الظاهرة في نظرات عالمية أخرى.

مشكلة الشر، مشكلة مَن؟

يقودنا البحث التاريخي وواقع سؤال الشر في الحضارات إلى أن هذا الإشكال الوجودي إشكال حديث نسبيا، فهو وليد ما يعرف بـ"عصر التنوير" الذي أفسد وعي الإنسان الغربي المعاصر بأهم أسئلة الوجود والحياة، مما زرع في روحه وإرادته أمراض العصر الكبرى.

تآكل غائية الحياة

لقد تحول الإنسان الغربي تدريجيا بعد عصر التنوير عن سؤال: "لماذا نعيش؟" إلى سؤال: "كيف نعيش؟"، واحتلت "وسائل الحياة" مكان "أغراض الحياة" لتصبح أرض هذه الدنيا سجن هذا الإنسان ومنتهى بصره، ولتغدو مواجهة المشقة في حياته عنوان معاناته؛ إذ إن هذه المعاناة خالية من المعنى مقطوعة الصلة بالنهاية . إن الشر في حس الغربي المعاصر ليس إلا مظهرا من مظاهر النشوز عن معنى الحياة الممكنة، وهو بذلك يخالف ما استقر في ذهنية كثير من الأمم الأخرى التي ترى غاية الحياة في تحقيق الفضائل الكبرى للفرد أو الجماعة (العائلة، القبيلة، الوطن) أو تحقيق الأمجاد الراسخة أو بلوغ الجنة والراحة في ظلال نعيمها الباقي.

إن الحياة الغربية المفرغة من المعنى الشائق والمذعورة بين جدران الميلاد والوفاة تضجّ من كل قرصة ألم وتذعر من كل لسعة أنين، فليس في الوجع والأنّة غير خسارة لدقائق من أيام فانية تسير بالإنسان إلى حتفه، ولذلك فإن الهروب من الأذى بأنواعه هدفٌ في ذاته، ولا يتوصل به إلى قيمة عليا، فالحياة في ذاتها هي الغاية، وما الشر غير حدث عرضي في كونٍ ليس إلا مادة وطاقة في حركة دؤوبة عمياء.

إن العالم الغربي الذي نُحت وجه الحياة فيه بعدميّة[3] (نيتشه)، ولامعنى[4] (سارتر)، وجبرية (كامو)، يعيش اليوم انهيار المعنى والغاية. وبتداعي المعاني وانتهاء الغايات فقَدَ الشر دلالته البعيدة وانتهى إلى النشازية.

ليس للحياة عند الماديين معنى إلا ما يُكسبه الإنسان إياها. وإذا كانت الحياة بذاتها بلا معنى متجاوز لمظهرها المادي، فلا معنى إذن للمعاناة إلا أن تكون مظهرا من مظاهر عبثية الوجود. وإذا لم يكن هناك إله، فلا يمكن أن يكون للحياة معنى إيجابي؛ إذ إن صفحة الحياة لا يمكن أن تكتسب معنى إذا لم تكن مجرد مقدمة في كتاب يتضمن صفحات تتلوها أخرى متوجة بخاتمة معبرة عن معنى شيق وثري.

لقد فقد الإنسان قدرته على مغالبة الشر لأنه فقد في ذاته حافز القدرة على استشعار أي معنى إيجابي للمعاناة والصراع مع أوجه النقص في حياته. وإنه لا يكاد يخلو كتاب غربي للإلهيين في الثيوديسيا من تقرير أن الحل المقنع لمن يغرق بين لحجج الأوجاع لفقد أم أو زوجة أو غرغرة طفل في معاناة طويلة مع مرض السرطان أو غير ذلك من الأوصاب التي يتكسّر القلب عادة على صخورها الناتئة الحادة، هو في يد حانية تشد من الأزر وقلب يشارك المحزون ألمه ويرفع فيه همته وينقذه من نصال الوحدة الحادة، وليس في مجرد جواب فلسفي مجرد عن أصل الوجود ومعناه. ونحن لا نشارك هؤلاء الكتّاب رأيهم، فإن عقيدة الإنسان المسلم نابعة من فكره وعواطفه، وهي كنزه الدفين الذي يجد فيه عند الفرح والترح والسعة والضيق زاده لإكمال المسير ووقود جوارحه في سعيه إلى غايته الكبرى، والتي هي النجاح في امتحان الحياة.

---

3 العدمية (*Nihilism*): هي رفض جميع المبادئ الدينية والأخلاقية، و الإعتقاد بأن الحياة لا معنى لها.

4 اللامعنى (العبثية) العبثية هي فلسفة تتلخص في أن مجهودات الإنسان لإدراك معنى الكون دائماً ما تنتهي بالفشل الحتمي (وهي لذلك عبثية) وذلك لأن هذا المعنى المنشود غير موجود أساساً، على الأقل فيما يتعلق بالفرد.

قال تعالى: (**وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّـهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**) فالصبر على البلاء مطلب إلهي، ووقوف المؤمن في قلب المحنة بثبات وصلابة مغروسة في الأرض المتحركة تحته واجب لمن آمن بالنبوة الخاتمة؛ ولذلك يبشر صاحب البعثة الخاتمة من أفلح في استحضار عقيدته في الغيب عند هبوب الفتنة بالأجر العميم: "ما من عبد تصيبه مصيبة، فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرا منها إلا آجره الله في مصيبته، وأخلف له خيرًا منها".

هنا يتميز المسلم الواعي بعقيدته عن الغربي التائه عن معنى الوجود، فهو يجد في معرفته النظرية عن الكون والإنسان والحياة مصدر إلهام تشرق منه عليه المعاني الحية كل حين، ولا يختزل إقراراته العقدية في الرسوم والشعائر الباردة كما عامة الغربيين.

انتهت العقلانية المغرورة بالإنسان المتمدن إلى أن يرى في نفسه القدرة على الإحاطة بالكون علما، والقطع من خلال حواسه بالموجود والعدم، ولذلك فهو لا يجد حرجا في نفسه أن يقطع بغياب الحكمة وراء ما لا يدركه وعيه من مظاهر، فقد أضحى هذا الإنسان سيد الكون _في ظنه_، ووقر في ذهنه أنه قادر على أن ينظر إلى العالم من علٍ ليبصر كل أفراد الوجود، فما لم تدركه عينه فهو عدم، وما لم تبدُ له منه حكمة هو عين العبث.

إن المستقريء للتاريخ الإسلامي يلاحظ أن مشكلة الشر قد شغلت عددا من الطوائف، وعلى رأسها المعتزلة؛ لأنها تطعن في تناسق المنظومات العقدية لهذه الفرق، ولم تكن في

المقابل سؤالا عنيدا بالنسبة للسني؛ إذ استطاع العقل السني المستسلم لنصوص الوحي والذي يرفض التعسف في الجمع بين دلالات كلام الله وظنون البشر ووساوسهم، أن يرى هذا الوجود بأوجاعه وآلامه متساوقا مع حقيقة وجود إلهٍ قدير عليم رحيم؛ لأنه عقل لم يخضع لحوافز أنسنة الإله وصفاته، ولم يتوهم أن الكمال الإلهي يقتضي مركزة الإنسان في قلب الوجود، بل هو يرى أن الحكمة الإلهية قادرة على أن تنسج من خيوط الألم قصة معجِبة تجمع بين العدل والرحمة بلا تنافر، والحكمة والأذى في تكامل، وهذا ما يريد كتابنا أن ينتهي إلى بيانه، ونلخص أهدافه في:

- **بيان أن الشر لا يشكّل حجة منطقية أو ترجيحية لنفي وجود الله.**
- **بيان أن الإسلام يَعِد بتقديم حل نسقي (Systematic Solution) لمشكلة الشر.**
- **عرض شبهات كهنة الإلحاد، وأطروحات المؤلِّهة من الغربيين، مع بيان أوجه الصواب والخلل فيها.**

الطريق الخطأ إلى الجواب:

- إن القاريء في المكتبة الضخمة للإلهيين يلحظ أن عامة الأجوبة التي قدموها عن مشكلة الشر لم توفق إلى الجمع بين الاستيعاب والواقعية، ونرى أنها معيبة بالخلل أو مشوبة بالقصور، ونعرض لها لِمامًا كي لا يظن متعجِّل أن كتابنا يقع في ذات سياق هذه الأجوبة:

1. لا وجود للشر.
2. الشر سر محض.
3. الكون الشفّاف.
4. شر بوجه واحد.
5. جواب بوجه واحد لمشكلة الشر.
6. طلب جواب بسيط.
7. التفسير التفصيلي.
8. إنكار الكمال الإلهي.
9. الخطأ في تعريف عدل الله.
10. أفضل العوالم الممكنة.

وقد عرض الباحث باختصار لكل قولٍ منها؛ مشيرا إلى القائل به، ومبناه عنده، ووجه الخلل والقصور فيه.

لا يُفترض في خطابنا أن ينطلق مع المخالف من التصديق بخبر القرآن والسنة؛ لأن مخالفنا لا يقر للكتاب والسنة بالحجية. وإنما نَقَلْنَا نصوصا من الوحي في دراستنا هذه: إما **استدلالا بالحجة العقلية الواردة في الوحي** أو **لنبين مذهبنا التصوري في القضايا الوجودية**. ويقوم هذا البحث على مجموعة أصول تصوّرية، أهمها:

- عدل الله سبحانه هو في (وضع الشيء في محله اللائق به)، والظلم هو (وضع الشيء في غير موضعه)، وهو مذهب أهل الحديث، على خلاف مذهب القائلين: إن العدل هو (تصرّف المالك في ملكه)، وإن الظلم هو (تصرف المالك في غير ملكه).

- لا يجوز أن يقاس الله بعباده؛ ولذلك فالعدل الإلهي أعلى وأدق من العدل بالمعنى البشري، على خلاف فهم "التشبيهيين" للعدل.

- أفعال الله معللة، ففعله سبحانه صادر عن حكمة بالغة لأجلها فَعَل، وناشيء عن أسباب بها فَعَل، على خلاف من ينفون الحكمة في أفعال الله.

- الله عليم، محيط بكل معلوم، لا يعزب عن علمه شيء، جليله ودقيقه، على خلاف قول من ذهب إلى أنه سبحانه يعلم الكليّات دون الجزئيات.

- للإنسان إرادة، على خلاف قول الجبرية الذين يرون الإنسان أسير حتميات قدرية.

إن الكتابات ذات الطابع الإسلامي التي عرضت للموضوع بصورة مباشرة نادرة، وأهم ما كَتَبَ في هذا الموضوع بنَفَس سُنِّي هو الإمام (ابن القيم) رحمه الله، خاصة في بعض أبواب كتابه النفيس "شفاء العليل"، و(لابن تيمية) كلام في الموضوع متناثر في كتبه ورسائله. أما في كتابات المعاصرين؛ فإن أشهر من كَتَب ولو باقتضاب شديد (عبّاس العقّاد)، وكذا (سعيد النورسي) خاصة في "رسائل النور". **ومن وعود كتابنا هذا أن يسعى إلى تقديم خلاصة أفضل الدراسات المعمَّقة والجادة في الرد على هذه الشبهة في المكتبة الغربية.**

إشكالات في أصل الشبهة

الشر في حقيقته إشكال للمؤمن المطالب أن يجد له مكانا غير نشاز في تصوره للألوهية، كما أنه إشكال للملحد الذي عليه أن يجد له تفسيرا ملائما في عالمه المادي العابث. وللإحاطة بإشكالات وجود الشر في عالم الملحد علينا أن نطرح عددا من الأسئلة:

- **ما دلالات وجود الشر في التصور الكوني للفرد المفكّر؟**
- **هل يسترجع الكون تآلفه مع عقيدة الألوهية إذا انعدم الشر؟**
- **كيف يتنزه الإله عن الظلم من خلال مضامين التصور الكوني للملحد؟**
- **هل تقود مقدمات الملحد _منطقيا_ إلى نفي وجود الله؟**
- **هل يصح القول: إن الله قد أراد كونا مختلفا عن ما انتهى إليه خلقه؟**
- **هل لمشكلة الشر مكان في التصور العقدي الإسلامي أم هي وافدة عليه من الخارج؟**

لماذا نستشكل وجود الشر؟

سؤال الإنسان عن الشر والحكمة منه - سواء وجدت الحكمة أم لا- يعود إلى عدة محفزات تخالف التصور المادي الإلحادي للكون؛ إذ هي محرّكات مغروسة في طين الإيمان، تُسقى ومحفزات الإيمان من ماء واحد، وأهمها:

1) نحن نسأل عن الحكمة من الشر لأننا نعتقد أن لحياة الإنسان قيمة. ولا يملك الملحد أن يفك نفسه عن إضفاء معنى على الحياة حتى وهو يريد أن يعدمها بنفي الإله.

2) نحن نتساءل عن الشر؛ لأننا نراه نشازا، ونرى الخير هو الأصل، وهذا لا يلتقي مع الكون الإلحادي الذي لا يعرف قيمتي الخير والشر؛ لأن المادة والطاقة (وهما حقيقته الوحيدة) لا تعرفان الرحمة والعطاء.

3) نحن نتساءل عن الشر لأننا كائنات أخلاقية، وهذا زَرْعٌ نفسي غير مادي في كون مادي مزعوم.

4) نحن نبحث عن معنى الشر والحكمة منه لأننا اعتدنا أن نجد في الكون أجوبة على أسئلتنا الكبرى والصغرى، وإشباعا لحاجاتنا الجليلة والبسيطة.

5) نحن نتسائل عن الحكمة من الشر لأننا كائنات عاقلة، والعقل نفحة غير مادية تلزمنا أن نبحث للأشياء عن سبب لدخولها حيّز الوجود وخروجها من فراغ العدم.

وماذا عن مشكلة الخير؟!

ا) **الخير هو أصل السؤال:**

إذا كان سؤال الشر يبحث بحق عن إجابة منطقية؛ فلا بد أن يُجاب أولا عن سؤال أهم، وأحرى بالنظر، وأغزر دلالة، وأكثر استحثاثا للنفس، وهو: إذا لم يكن هناك إله؛ فلم؟، ومن أين هذا الخير؟ إن معرفة أصل الخير الذي يعم العالم ويهيمن على وجوده في الإنسان والحيوان والنهر والسهل والوادي .. إلخ أحرى أن يكون محل النظر وموضع الاستفهام والتدبر، بل هو السؤال الأصلي؛ لأن الشر لا يعرف لنفسه وجودا من غير خير يشير إليه أنه موجود وبضدها تتميز الأشياء.

ب) **الخير، موضوع أولى بالاستفهام:**

إن فَهْمَنا لعالم الفيزياء أو الكيمياء أو البيويوجيا .. يجب أن ينطلق من فهم القانون العام والاستغراق في تأمّله وتدبره وتفسيره، ثم إذا استقام فهم الأصل ينتقل الذهن إلى فهم الاستثناءات والشذوذات ضمن الفهم الحاصل من إدراك العام المستقر، ولذلك فإنه من الخطأ أن يُعمِّي الشذوذ على حقيقة أصل، ويصبح أساسا في فهمه، أو أصلا لنفي الأصل، وهذا ما نراه رأي العين في دعوة الملاحدة.

ت) <u>الشر هو النشوز:</u>

إن العلم الطبيعي نفسه قائم على فهم الشرور المادية على أنها في الأعم الأغلب نشوز عن أصل عمل الكون، وهو لا يفسرها إلا من خلال طبيعة خروجها عن الأصل، فالأمراض هي خروج عن أصل العافية؛ أي: هي فساد في العمل الأصلي لعضو من الأعضاء، فهل من العقل أن ننفي خيرية القوانين التي تحكم عمل أجهزة أبداننا لأن فسادا لحق أحدها؟ وإذا لم يكن هناك إله، فلا معنى لأن يكون الشر هو النشوز، فلا أقل من أن يكون هو الأصل، إن صحّ وجود الخير والشر أصلا. إننا لن نفهم المعنى الوجودي للشر (الاستثناء) حتى نقرّ بالمعنى الوجودي للخير (الأصل). فإذا أجيب عن سؤال: "لم؟ ومن أين هذا الخير؟" الجواب الموفَّق، صار سهلا أن نجيب على سؤال: "من أين هذا الشر؟" لأننا إن استطعنا أن نفهم "القاعدة"، فسندرك بسهولة حقيقة "الشذوذ"!

ث) <u>كيف نفهم الشر في إطاره:</u>

لا يسوغ للعاقل أن ينكر العظمة والحكمة في هندسة قصر منيف لمجرد أن غرفة مرتبة فيها على صورة لا تروق لذوقه. وإن هذا الاعتراض في ذاته ساقط من الناحية المنطقية ابتداء، <u>فهو يقوم على الزعم أنه:</u>

1. يجب أن يبلغ تصميم الإله القدير ذروة الكمال.

2. من أجهزة الكائنات الحية والجمادات ما ليس على أحسن صورة، بل بعضها سبب لتلف الكائنات الحية.

3. إما أن الله عاجز عن أن يحسن تصميم خلقه أو أنه لم يخلق هذا الخلق بما ينفي أنه موجود؛ وفي كلتا الحالتين يَبْطُل التصور الألوهي للخالق.

يقوم هذا الترتيب الاستدلالي على مغالطة أولية تزعم أن وجود الإله الكامل يقتضي أن تكون مخلوقاته كاملة في أفرادها. **ووجه المغالطة هو افتراض أن كمال الله يتعارض مع إرادته**، وبذلك فإرادته مقيدة بكماله، بما يلزم منه أن يكون خلقه للأعيان من المخلوقات في الذروة من الكمال، فلا وجع ولا مرض ولا موت. كما أن هذا الاعتراض يفترض أن الحكمة تقتضي أن يكون كل مخلوق كامل الصنعة في ذاته، وهو إلزام بغير مُلزم، إذ إن أبواب الحكمة أكبر من ذلك، فقد تكمن الحكمة في خلق الناقص وإعدام الجيد. وفي الحقيقة هذا الاعتراض ينتهي إلى أن على الله أن يخلق إلها مثله حتى يثبت له الكمال! وهو كمال محال لأن الإله غير مخلوق ضرورة!

ج) ـ <u>عجز التفسير الطبيعي(المادي):</u>

لماذا يحمل الإنسان هذا الحس العالي لقيمتي الخير والشر؟! وكيف تؤثر المعاني المجردة في سلوك الإنسان لتدفعه إلى أن يرى في الخير والشر ميزان حياته؟! إن دعاوى مادية مثل التفوق العرقي، والبقاء للأقوى، وشهوة القوة من الممكن أن تفسر الظلم والأنانية والفساد في الأرض، غير أن معاني الحنان والرحمة والإيثار والتضحية بالنفس في سبيل فكرة نبيلة لا يمكن أن تجد لها مكانا في عالم المادة الإلحادي الذي لا يعترف بغير المادة

وقوانينها وإفرازاتها. إن ظلم الظالم لا يفاجيء الملحد لأن فيه استسلاما لقانون الرغبة في البقاء، غير أن التضحية والإيثار يقفان ضد عالم المادة بلا قلب.

مشكلة الشر حجة على وجود الله:

يرى المؤمنون بالله أن مشكلة الشر في ذاتها برهان عظيم على وجود الله، ولهم على ذلك براهين قوية وإن لم يجر القلم عادة بذكرها، ومنها:

أولًا: دليل المعيار:

لا يمكن للملحد أن يستدل بالشر الموجود في العالم لنفي وجود الله حتى يقر بوجود الخير والشر، ولا سبيل للإقرار بقيمتي الخير والشر حتى يقر الملحد بوجود المعيار الموضوعي، ووجود المعيار الموضوعي الأخلاقي غير ممكن دون وجود مشرّع أخلاقي غير مادي، وهذا المشرّع هو الله الذي تسعى الحجة الأخلاقية المعتمدة على الشر لنفيه! فلا سبيل لاعتماد حجة الشر لإثبات الإلحاد حتى يُنقض الإلحاد بإثبات وجود الله، فغاية الملحد ووسيلته لذلك تتنافيان! ليس للإلحاد قول معقول أمام مشكلة معيارية الخير والشر ودلالتها على الخالق.

ثانيًا: الشر دليل نقيضه:

الإقرار العقلي والنفسي بوجود الشر هو تعبير ضمني عن وجود الخير، ووجود الخير حجة على وجود الله، فلا وجود للخير في عالم المادة الصرفة.

ثالثًا: الشر حجة على مخلوقية الكون:

ليس في الكون ما يدل على أنه ككل أو بأجزائه واجب الوجود؛ أي: ما يلزم من عدمه محال عقلي، ومن دلائل حقيقة أنه ليس كذلك وجود الشر فيه كنقص معبر عن قصوره، وفي تعبير الكون عن قصوره دلالة على حاجته إلى واجب الوجود الذي يرجّح وجوده على عدمه، وهو الله.

رابعًا: الألم .. الإبداع، والحكمة التي لا تضاهى:

كيف نحس بالألم؟ لمَ لمْ يسأل الملحد نفسه هذا السؤال؟ إن الإجابة على هذا السؤال جديرة بأن تهز النفس هزا؛ إذ لا توجد ضرورة في المادة تفرض وجود الجهاز العصبي الذي يستشعر الألم وينقله ضمن شبكة من ألياف طويلة جدا، بوسائل غاية في التعقيد، إلى الدماغ. فلِمَ وجد هذا الجهاز لتحقيق هذا الشعور؟!

إن الاعتراض الإلحادي ينطلق من "إله إلحادي"؛ أي: إله كما يتوهمه الملحد لا كما تقدمه الأديان بصورة بعينها؛ ولذلك يقدم الملحد صورة مجتزأة أو قاصرة أو مشوهة لما يعتقده المخالف، والحق يقتضي أن يكون النقاش مع المسلمين منطلقا من تصورهم لذات الله وغاية فعله في العالم.

إن **آفة التفكير الذري ملازمة للتفكير الإلحادي بصورة حادة**؛ فهذا المنطق في النظر يرى في مواضيع الأفكار المدروسة وحدات ذرية مبعثرة لا يصل بينها خيط جامع محكم. إن تفكير الملحد والمتشكك ينظر إلى المسألة المطروقة بعيدا عن الكليات والجزئيات التي تحاصرها من كل جهة، فاصلا لها عن سياقها ووجهتها.

تفكيك الشبهة:

- <u>**الإله كإنسان حكيم:**</u>

إن أول الواجبات في بحث القضية هو ألا تبدأ الدراسة بمقاربة تمركز الإنسان في قلب الوجود (Anthropocentric Approach) وإنما يجب أن يكون الإله مركز الوجود الكوني حتى يكون فهمنا للشر في التصور الإيماني متناسقا مع ذاته، فلا نحاكم العقلية الإيمانية في سياق دهري (إلحادي) يدفع الباحث إلى أن يصل قصرا إلى عدم تجانس الوجود الإلهي ووجود الشر.

ويجنح الملاحدة عند النقاش في ذات الله وأفعاله إلى إجراء مقايسة أفعال الله بأفعال عباده قياس تمثيل[5] وقياس شمول[6]، وهو ما يقتضي الاشتراك الكلي بين الله والإنسان في كل شيء. **وأهل السنة يردّون كلا القياسين، ويقولون بقياس الأولى**؛ أي: إن كل كمال للمخلوق _يليق بالخالق_ لا نقص فيه بوجه من الوجوه فالله أولى به؛ لأن مصدر هذا الكمال للمخلوق هو الله. وإذا كان ذلك كذلك؛ لزم أن يعرف أن العدل بمعناه الإنساني لا يتطابق مع العدل في فعل الله، وذلك لأسباب عديدة.

<u>**في تصور الملاحدة**</u> أن الإله/البشري يكشف جميع أفعاله، ولا يُسِرّ منها شيئا، وعليه أن يقدم عريضة دقيقة فيها الدافع والغاية من كل فعل، وعلى هذه الأفعال أن تؤول إلى تحقيق الرفاه الإنساني، مع مراعاة البيئة التي نشأ فيها كل فرد. هذا الإله/الإنسان يجب أن يكون مسلوب المشيئة الذاتية ومستعدا في كل حين ليتكلم مباشرة مع سائله عن الأسئلة الوجودية والمبررات الفقهية ... إنه على الخط الآخر من الهاتف ينتظر بلهفة ورجفة ما

---

5 قياس التمثيل: هو أن يلحق الشيء مثيله.

6 قياس الشمول: هو ما يعرف بالعام الشامل لجميع أفراده، بحيث يكون كل فرد منه داخلا في مسمى ذلك اللفظ ومعناه

يستشكله خلقُه من فعله في الكون!! إن العدل المطلوب من الملاحدة يقتضي أن يصنع الإله هذا!!

إن من أعجب ما يشين التفكير الإلحادي انطلاقه من المجهول لإقامة المعلوم، واتخاذه الأمر المشكل لا اليقيني أصلا لإقامة فهم كلي للوجود!! وينطلق المنطق الإيماني من المعلوم، ومن الكُلي المدرَك؛ ليقيم منظومته الكبرى مستعينا بالنظر العقلي ومدد الوحي! فهو يدرك الحكمة في عامة ما يرى، ولذلك ينطلق من هذا المعلوم لتأسيس كلياته الكبرى التي ستهيمن على تفسير المجهول الذي لا يدركه حينا أو أبدا.

- **مشكلة الشر، وصفات الرب لا وجوده:**

إن مشكلة الشر لا يمكنها أن تنفي وجود الخالق؛ لأنها لا تتعرض لأصل هذا الوجود، بالإضافة إلى أن هذا الوجود ثابت بأدلة يقينية لا تقبل المعارضة، فلنا أن ننتهي إلى أن هذا الإشكال أقصر من أن يتعلق بالدعوى العريضة للإلحاد. <u>وبإمكاننا أن نرتب ذلك منطقيًا على الصورة التالية:</u>

1. الدلائل الفطرية والعقلية والعلمية قاطعة أن لهذا العالم خالقًا.
2. لا يوجد برهان منطقي يلزم عقولنا على الاعتقاد أن صفة العدل ضرورية في هذا الخالق الذي دلّ الكون والعقل على أنه واجب الوجود.
3. وجود الشر لا تعلق له بمسألة وجود الخالق، وإنما له تعلق بصفاته.

ونحن الآن سنقسم (إشكال الشر) الأكبر إلى وحدات متمايزة موضوعيا:

الشر ونسبته إلى الله

ما هو الشر؟ هل يوجد شر بذاته؟ أم أنه شر في ظرف من الظروف ووجه من الأوجه؟

إن النظر الهادئ يفضي إلى القول بأن دعوى أن الشر يمثل شيئا ما في ذاته ليس إلا نوعا من أنواع المغالطات المنطقية؛ أي: مغالطة التشييء أو التجسيم؛ إذ يتم التعامل مع الأشياء المجردة غير المحسوسة على أنها ذوات متحيزة محسوسة أو أحداث واقعية. فليس الشر في واقع الناس مادة تُحسّ ولا ذاتا تُجسّ، وإنما هو أثر لفعل أو حال ما، إذ لا وجود لشر مطلق، ولذلك فهو أمر نسبي أو جزئي. وبصورة أدق، **علينا أن نعتبر الشر صفة لا ذاتا، وأنه لا يُعامل معاملة الاسم إلا إذا كان في صيغة التجريد.**

فالشر واقعيًا ليس إلا عارض فساد في شيء من أشياء الوجود التي هي في أصل وجودها سليمة من العيب، كالجرح في اليد والصدأ في الحديد؛ فلولا اليد وأصل سلامها= ما كان الجرح. والشر الذي هو حقيقة ذاتية لا يعتوره خير من أي وجه= لا وجود له في الدنيا. و**<u>الخلاصة:</u> الشر مجرد نِتاج أنطولوجي عرضي لخلق كائنات محدودة**، فوجوده تابع لوجود كون غير متصف بالكمال، وليس هو أصل لذاته، ومحدوديته في منعه الشيء من بلوغ مرتبة الكمال أو الاستواء والصلاح.

- **الشر في المخلوقات لا في فعل الخالق:**

هل يصح أن يقال: إن الله يفعل الشر، وأنه لذلك "شرير" عياذا بالله؟ تقدّم أن الشر ليس ذاتا موضوعية وإنما هو صفة نقص، **ولذلك لا تصح نسبة الشر إلى الله وإنما هو صفة**

من صفات مخلوقاته؛ إذ هناك فرق بين فعل الله الخالق مباشرة وفعل مخلوق الخالق، فإن الله لا يريد لعباده إلا الخير لكنه:

1) يخلق خلقا أصحاب إرادة (أناسي) يختارون غير ما رضيه (أي: أحبه) الله لهم، فالشر هنا سببه إرادة الإنسان، والله خلق إمكانية وجود الشر لا الشر ذاته.

2) يخلق الله خلقا غير عاقل يفعل الشر، لكنه شر من وجه لا من كل الأوجه؛ فالزلازل والبراكين مثلا هي نتاج لقوانين فيزيائية بثها الله في الأرض، وهي ليست شرا في ذاتها.

فالشر لا يضاف للرب لا وصفا ولا فعلا، ولا يتسمّى باسمه بوجه من الوجوه، وإنما يدخل في مفعولاته بطريق العموم.

قد يتساءل القاريء: "وماذا عن خلق إبليس؟! أليس هو عنوان الشر المحض، فهل في خلقه خير؟! إنه طريق الناس إلى جهنم ورائدهم إلى الكفر بكل نعمة، والعصيان لكل أمر!" **والجواب على الإشكال من وجهين:**

1) أن النظر في قصة إبليس كما جاء بها خبر الوحي مخبر أن الله سبحانه لم يخلق إبليس ليضل الناس، وإنما خُلق إبليس كما خلق البشر للعبادة، غير أنه اختار أن يتكبر على أمر الله بالسجود لآدم، ورضي لنفسه طريق الضلالة والإضلال.

2) أن في وجود إبليس، على ضلاله، حكمٌ جليلة يصعب استقصاؤها، وقد ذكر علماء الإسلام كابن القيم طرفا منها يدفع القول المتوهم أن وجود إبليس شر محض لا خير معه؛ فليُراجع.

في التعارض بين وجود الله ووجود الشر:

يكاد يتفق الخائضون في مشكلة الشر اليوم من ثيوديسيين وفلاسفة أن الموضوع الأكبر لمشكلة الشر هو ثبوت التعارض بين وجود إله قديم عليم رحيم ووجود الشر، غير أن هذا الإشكال الواحد مجمل في صياغته، وحقيقته أنه مجموع مشكلات متعلقة بالشر ووجوده في عالم مخلوق من رب كامل، وهي:

ا) **المشكلة المنطقية للشر**

تتمثل المشكلة المنطقية للشر في زعمهم أن وجود الله يقتضي عدم وجود الشر؛ إذ الشر محض فساد لا خير فيه. **وحتى يقوم هذا الاعتراض الإلحادي؛ عليه أن يثبت هذا التعارض منطقيا!** فالمؤمن بالله ينفي هذا التعارض بإثبات أن الشر ليس فسادا محضا وذلك بإمكان إثبات أنه قد يُتوصل بالشر إلى خير أعظم منه أو إلى دفع شر أشد منه. **والحق: أنه حتى يصح أي استدلال منطقي لإثبات التعارض المزعوم لا يكفي أن تكون المقدمات المنطقية ممكنة أو صحيحة، بل لا بد أن تكون ضرورية؛ أي: إنه يمتنع على العقل افتراض صحة غيرها؛ إذ يترتب على ذلك تناقض عقلي. فهل على الإله الخَيِّر أن يمنع وجود الشر؟** لا تحمل دعوى التعارض منطقيا دليلَ صحتها، فهي مجرد قفزة لامنطقية من دعوى تعارض الخير والشر إلى غيرها دون تمهيد. ولنقض هذا التصور بإمكاننا أن نثبت إمكانية أن تكون لله حِكَم بالغة في وجود الشر في خلقه تزيد قدرًا على وجود الشر ذاته. ومن الحكم المنطقية أو الممكنة من وجود الشر والتي تزيد في قيمتها على وجود الشر _وهي كثيرة_: اختبار الناس في هذه الأرض في حياةٍ سبب وجودها امتحان إيمانهم أمام الفتن؛ نعما ومحنا، وكذلك حرية الإرادة، وغيرها.

- **كمال القدرة أو القدرة على المستحيل:**

ما معنى أن يكون الإله كامل القدرة؟ هل يعني ذلك أنه: قادر على فعل كل شيء ولو كان محالا من الناحية المنطقية؟ أم قادر على فعل كل شيء ممكن منطقيا؟ يقرر علماء العقيدة من المسلمين ومعهم النصارى واليهود أنه لا يصح أن يقال إن الله قادر على فعل "المستحيل منطقيا"؛ لأن هذا المحال عدم، **والقدرة لا تتعلق بالعدم**؛ إذ إن هذه المحاولات المطلوبة من الرب، ليست في حقيقتها أشياء ممكنة الوجود أو حتى التصور، فهي على الصواب مجرد مخاداعات لفظية لا يمكن أن يكون لها وجود إلا في عالم اللغة الشكلي.

- **أليس الله "إله محبة"؟!**

يسيطر على الثيوديسيين النصارى هاجس الحفاظ على دعوى الكتاب المقدس للكنيسة أن الله محبة بإطلاق، ولذلك يضطرون إلى تكلفات عجيبة للجمع بين وجود الشر وأن الله "محبة محضة"؛ إذ إن مقتضى هذه "المحبة" اللامشروطة أن يخلو الوجود من كل أذى وفساد، وأن يتنعم الإنسان بالدنيا مهما كان اعتقاده وفعله في الأرض.

بينما لا يجد المسلم نفسه في مشاقة مع القول بأن الله "محبة محضة" لأنه لا يؤمن بهذا المعنى الذي لا يلتقي مع فهمه للعدل الإلهي والكمال الربوبي، وإنما هو يؤمن أن الله "ودود"، وهو سبحانه في وده لخلقه يختبرهم على الأمر البسيط ليمنحهم بفضله الخير العميم، وهو يبذل حبه لمن تولى عن الباطل وطرقه وأقبل على الحق وسبله.

ب) مشكلة الشر الأخلاقي

يحتج المعترض بوجود الشر على إنكار وجود الله، بقوله: أنتم تقررون أن الله لا يفعل الشر لكنه مع ذلك سمح بوجوده؛ إذ لا يكون شيء في ملكه رغما عنه!! فكيف نوفق بين علم الله وعدله وقدرته من جهة وسماحه للشر النابع من أفعال الناس بالوجود في العالم؟

إن التوفيق بين كمال الله سبحانه وسماحه للشر بالوجود يسير إذا بدأنا النظر بالقول إن الله لا يفعل شيئا إلا بحكمة يحمد عليها وغاية هي أولى بالإرادة من غيرها، فلا تخرج أفعاله عن الحكمة والمصلحة والإحسان والرحمة والعدل والصواب، كما لا تخرج أقواله عن العدل والصدق.

- **الشر نتيجة لمحنة الإرادة الحرة:**

الشر الأخلاقي هو فعل السوء أو ترك الخير الذي يأتيه الإنسان بإرادته الحرة؛ كالكذب والسرقة والقتل. هذه الإرادة المنطلقة إلى "الشر" كما "الخير"، هي إرادة حرة، ضمن حدود القدرة الإنسانية التي أنشأها الله في البشر. فالشر هنا استخدام لعطية القدرة في غير موضعها وتوجيه للفعل البشري إلى أمر سلبي.

- <u>وبإمكاننا الآن أن نعيد صياغة المعادلة:</u>

1. خلق الله سبحانه كل أمر حسن.
2. من الأشياء الحسنة التي خلقها الله الإرادة الحرة.
3. الإرادة الحرة سبب لإمكانية وقوع الشر.
4. = إذن، المخلوق الذي خلقه الله خَيِّرًا من الممكن أن يفعل الشر.

إن هذه العطية الثمينة للإنسان لا بد أن تُوصَل بحقيقة الوجود الامتحاني للإنسان على الأرض لندرك أنها ليست عطية مجانية، وأن ما ينتج عنها من أثر سلبي إنما هو جزء جوهري في هذا الامتحان.

ج) مشكلة الشر المادي

تفر عامة الخطب الحماسية الإلحادية إلى الشر الطبيعي باعتباره أوضح المسالك لنفي وجود الخالق. **فكيف بإمكاننا أن ندرك الحِكَم من وراء "الشر" الطبيعي؟** ويقودنا النظر في الأربعة الأمور التالية:

1. الطبيعة المادية التفصيلية لهذا الكون.
2. صفات الله سبحانه.
3. سبب خلق الإنسان في المعتقد الإسلامي.
4. الحِكم التفصيلية من وراء النوائب كما جاءت في نصوص القرآن والسنة.

إلى استشفاف حِكَم كثيرة لما ينزل بالناس من أذى بسبب ما يحيط بهم من مخلوقات حية وأخرى جامدة بلا حياة. ومنها _على سبيل التمثيل_ لقصور مداركنا البشرية عن الإحاطة بجميع التفاصيل المادية لهذا الكون وجميع مرادات الله سبحانه في خلقه:

- الشر وقود الخير ومبرر وجوده والإحساس به، إذ بضدها تتميز الأشياء.
- الشر ملعقة اللذاذة.
- ظهور حكمة الله وصفاته.
- حب الله لأن يُشكر وأن يَغفر.

- إشعار الإنسان بنعمة العافية.
- استخراج الفضائل الخُلُقية من نفوس الناس.
- اختبار إيمان العباد.
- إلجاء الإنسان إلى التوبة.
- الشر لتكفير الخطايا.
- إشعار الإنسان بحقارة الدنيا، إذا أَلِفَ العافية وذُلِّلَت له النعمة.
- عقاب الفاسدين.
- فضل الشر في رد العبد إلى ربه.
- جريان السنن الطبيعية ضمن نسق رتيب.

هل بإمكان الملحد أن ينفي؟ وهل يستطيع المشكك أن يجزم أن نماذج "الشر الطبيعي" التي يحتج بها لإنكار وجود الله خارجة عن كل ما سبق من أبواب الحكمة؟

والجواب: كما أننا لا نستطيع أن نقطع بحال الكثير من أنواع الشر الطبيعي أنها داخلة ضمن نوع مخصوص من الأنواع السابقة، فكذلك لا يملك المشكك إخراج أمثلته عن جميع أنواع الحكمة المذكورة .. ويكفينا هنا أن ننفي استحالة ربط الحكمة بوجود هذا الشر، لوجود أجوبة كثيرة محتملة، ولذلك فإن "ما تطرق إليه الاحتمال؛ سقط به الاستدلال".

د) مشكلة الشر المجاني

عدّل كثير من أعلام الدعوة الإلحادية الجديدة طرحهم من مجرد الاعتراض بوجود الشر إلى شبهة عبثية الشر التي يعبرون عنها بـ"مجانية الألم"؛ أي: الأذى الذي لا يخدم هدفًا ولا فائدة تظهر من وجوده، فيقولون:

1_ توجد حالات معاناة شديدة بإمكان الإله القدير العليم أن يمنعها دون تفويت خير أكبر منها أو السماح لشر يوازيها أو يربو عليها.

2_ على الإله العليم كامل الخيرية أن يمنع وقوع كل معاناة شديدة إلا أن يؤدي المنع إلى تفويت خير أعظم من هذه المعاناة أو السماح لشر يوازيها أو يربو عليها.

3_ = إذن، لا يوجد إله قدير عليم كامل الخيرية!

والحقيقة أن أصل دعوى "الشر المجاني" هو النظر إلى كل شر كوحدة منفصلة، في حين أنه لو نُظر إلى هذه الشرور كأجزاء من صورة العالم في كليته، فستتضح حِكم لا تدرك إذا عزلنا كل جزء على حدة.

لماذا لا يخبرنا الله بسبب كل شر؟!

- هذا سؤال بلا معنى، لسببين:

أولًا: قد أخبرنا الله أن الشر فتنة واختبار في رحلة الحياة، على وجه العموم، فليس في الحياة شيء من العبث القدري. كما أن مما يظنه المرء شرا هو خير له في الدنيا.

ثانيًا: عند التفصيل، يفقد الشر خيريته إذا كان كل شر ينزل بالإنسان تنزل معه وثيقة تشرح سببه وترفع غموضه وتبين مآله. على هذه الصورة، يفقد الشر الكثير من الحكمة التي وراءه، لتتحول الحياة إلى دبيب ميكانيكي ممل، يعرف المرء في أوله مآله، فلا مقام أو معنى فيه للاختبار الإلهي الذي يعقبه جزاء الجنة أو عذاب النار.

- **أغلوطة:**

تقوم حجة الشر المجاني على أصل حجة الجهل؛ أي: إن ما يبدو لإدراكنا مجانيا من الشر، هو كذلك على ظاهره لأننا نجهل الحكمة من ورائه، مما يلزم منه نفي وجود الإله الحكيم. **والحق: أنا لسنا نرى هذه المغالطة مدانة على إطلاقها، وإنما نقول: إن عدم العلم بوجود الشيء لا يقضي بالقول بعدمه إلا إذا توفر شرط إضافي وهو وجود قرائن على أن من طبيعة ما نبحث في وجوده ألا يُفلِت من آلتنا الإدراكية البشرية، أما إن كان خفاء الشيء عن إدراكنا ممكنا لصغره ودقته مثلا، فعندها نقطع أن من المغالطة أن نزعم أن عدم الشيء هو علم بالعدم.**

إن ما يبدو "شرا مجانيا" هو عنصر أساسي وجوهري في كمال عمل السنن الكونية؛ فإن عمل السنن المحايد في الكون مبرر لأحداث لا تبدو أفرادها _إذا نُظر إليها وهي منعزلة_ موصولة بالحكمة. فلا بد إذن أن يُنظر إلى الأحداث المتفرقة ضمن نسق كوني كامل يسير ضمن منطق داخلي خاص يفقد حكمته إذا تسلطت عليه الخوارق المكثفة حتى يتحول خرقها إلى ناموس جديد خارق لناموس العادة.

إن هذه الشرور التي تبدو مجانية مبررة في ميزان الحكمة بالخير العظيم الذي يتفوق عليها والذي هو أثر للانتظام السُّنني، وهو ما يجعل هذا الشر خارجا عن تعريف الشر المجاني في معجم (وليام رو) نفسه إذا نظرنا إليه من هذه الزاوية!

- **التعويض الأُخروي:**

قد يقول معترض: "أنا أوافقكم أن صلاح الكل يربو في قيمته على السماح لبعض الشر أن يوجد، لكن ذلك لا يلغي حقيقة أن أبرياء يقعون ضحية هذا الشر!"

وجواب ذلك هو أن اختزال الوجود الإنساني في هذه الحياة الدنيا وقطعه عن كل وجود آخر؛ يسبغ صفة السلبية على ما يؤذي الإنسان. إن الحياة الأخرى في التصور الإسلامي هي تتمة لازمة للفصل الأول من الوجود البشري في الحياة الدنيا، بل هي الحياة الحقة!

إننا نقر للملحد أن الحياة الدنيا كما نعيشها لا تعكس في أوجه منها العدالة التي نريدها، ونوافقه أن الحياة غير منصفة _كما يقال في المثل الشعبي الغربي_ ، ل**كننا لا نردّ ذلك إلى أن عالمنا يفتقد إلها حكيما، وإنما أصل الخلل هو في قصور رؤية الملحد لمجال حياة الإنسان؛ إذ قَصَرَ نظره على حياة الامتحان والمكابدة على هذه الأرض**، فرأى إجرام (نيرون)، وفظاعة (هتلر)، وشناعة أحداث (نكازاكي)، وأحزان الأطفال المشوهين، وأوجاع العجائز المشردين، لكنه لم يمدّ نظره إلى الحياة الأخرى التي تمثِّل حياة الجزاء حيث تجزي كل نفس بما كسبت، ودار المستقر حيث لا دار بعدها، وهي بقياس الحساب أطول وأعظم من هذه الدنيا الضئيلة بما لا يقدّر بعدد، إذ كل شيء عدم أو يكاد أمام حياة الأبد.

لماذا لم يخلق الله عالما أقل شرا؟!

يسلم كثير من الملاحدة أن في جنس الشر خيرا وحِكما، ولا يرون أن وجوده يعارض وجود الرب الرحيم، لكنهم يقولون: ليت شرور العالم كانت أقل، فإن كثرتها وقوتها تمنعان العقل من التسليم بوجود هذا الإله! **والظاهر العقلي لهذا الاعتراض لا يخفى حقيقة أنه صرخة وجع، لا همسة عقل، فهو على الحقيقة يريد للإنسان أن يفرّ من قرصة الوجع دون النظر إلى المآل!**

<u>إن طلب عالم أقل شرًّا يقتضي أن نصارح أنفسنا بعدد من الأسئلة:</u>

- هل نحن نملك القدرة على تحديد الحد الأدنى من الشر المقبول؟

- هل نحن على الحقيقة نعترض على الشر الزائد، أم على كل صورة قصوى موجودة للشر؟
- هل حقا لم يذهب أعظم الألم الذي لا نطيقه؟
- ما هي صورة الألم الذي يقبله المعترض؟
- هل الإزعاج الملازم للألم الناتج عن الشر، بلا حكمة؟

إننا بحاجة إلى أن نصارح أنفسنا بهذه الأسئلة لأنها مكتومة في داخلنا، ولو صارحنا أنفسنا بها فسنكتشف حقائق تزعزع ثقتنا في نفسياتنا المتضجرة دائما!

والخلاصة: أن الله سبحانه قد جعل نواميس في الكون تمنع النواميس "العفوية" من العمل حتى يكون الشر في حياة الإنسان هو الاستثناء. فهاهنا الرحمة والحكمة! وهاهنا قد خُفِّف الألم إلى مدى بعيد جدًّا!

الحكمة من الألم المؤذي في الشر

<u>إن في طبيعة أوجاعنا نعما لو أدركنا فضلها لعلمنا قدرها ونفضنا عن رؤوسنا وهم العبث، ومنها:</u>

1) الألم يحفظنا من أخطار مهلكة.

2) حتى يكون الألم فاعلا؛ لا بد أن يكون أحيانًا فوق قدرتنا الاعتيادية على التحمل.

3) حتى يكون الألم فاعلا؛ لا بد أن يكون خارجا عن سيطرتنا.

لماذا لم يخلق الله عالمنا بلا شر؟!

يرى المشكك أن وجود الشر مفسد لمعادلة هذا الكون المنظّم! والحقيقة أن هذا الاعتراض يثير سؤالا يقول: هل تؤدي إزالة الشرور إلى استواء عالمنا؟ ويختزن هذا السؤال في داخله أسئلة فرعية لا بد من بحثها:

- ماذا يبقى من معنى الحياة بعد ذهاب الشر؟
- ما غاية الحياة في عالم معصومين؟
- ما شكل العالم بلا ألم؟

- **عندما يعطي الشر لحياتنا معنى:**

هل يستطيع الإنسان الأرضي أن يعيش من غير ألم؟ للإجابة عن هذا السؤال نحتاج أن نسأل قبل ذلك إن كنا نطيق أن نعيش بلا معنى؟!

إن بحث الإنسان عن معنى هو المحرك الأساسي لحياته، وليس هو "عقلنة ثانوية" لموجّهاته الغرائزية، فهو الذي يمدّه بزاد للسير في هذه الحياة والإحساس بحرارة الوجود.

إن الألم عنصر أصيل في حياة سليمة وقلب معافى من البرود القاتل؛ فيه يجد الإنسان حوافز في داخله للاستمتاع بلحظات الوجود أو الإحساس بها ومغالبتها؛ ففي غيبة الإحساس باللحظة، أو الرغبة في تحقيق نصر على شر فيها، تهمد رغبتنا في البقاء وتتهاوى قدرتنا على الصمود.

إن هذه الحياة الدنيا بلا ألم غير قابلة لأن تعايش لأنها بلا دلالة تتجاوز الأنفاس الصاعدة الهابطة، وبعبارة (س. إس. لويس): "حاول أن تستعبد إمكانية الألم المتضمن في نظام الطبيعة ووجود الإرادات الحرة، وستجد أنك قد استبعدت الحياة نفسها".

لماذا لم يخلق الله عالما من الطيبين فقط؟

يتكرر على لسان المعترضين تساؤل مهم، وهو: لمَ لمْ يخلق الله عالما خالياً من الشر، البشر فيه أحرار لكنهم لا يأتون الشر وإنما يلتزمون العمل الصالح وينأون عن الشرور والمفاسد؟

والجواب هو قوله تعالى: (**وَلَو شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَلا يَزالونَ مُختَلِفينَ * إِلّا مَن رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُم وَتَمَّت كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَملَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنّاسِ أَجمَعينَ**).

فالله سبحانه قد خلق الناس بقدرات وملكات تقتضي ألا يكونوا كلهم مصيبين وألا يكونوا كلهم مخطئين؛ فقد ركز في فطرهم معرفة الحق، ثم أسلمهم إلى ما يختارون من حق وباطل؛ ولذلك ظهر الفساد والكفر (وهو أقصى الشر) من فريق منهم. فليس في حساب الله سبحانه أن يخلق عالما بلا شر، وإنما اختار لخلقهم هذه الطبيعة في هذا العالم؛ لأنه يريد ذلك.

عالمنا وعالم الملحد

إذا كان الملحد لا يرضى بغير عالمه (الوردي) الذي صنعه خياله وتفيّأ ظلاله، حتى يستقيم في العقل وجود خالق عليم قدير خيِّر، فإننا سنطلق لخيالنا مع خياله العنان وننتقل جميعا إلى عالمه، لنتبيّن إن كان حقا هو أفضل من عالمنا (المستبشع).

ولنا أن نتساءل ونحن نسير إلى عالم الملحد البريء من الفساد:

- هل بلغ عالم الملحد صورة الكمال التي ينفي نفيها وجود الله؟
- هل أخرج الاعتراض الإلحادي الملحد من مشكلة الشر أم أنه قاده إلى شر مما يحاذره؟
- هل يمكن للقلب أن يعاند إذا بريء من الأهواء؟

- **عالم الملحد المعترض ليس كاملا:**

العالم الذي يفترض الملحد أن الفعل الإلهي كان عليه أن يصنعه هو عالم غير كامل على الحقيقة؛ لأنه عالم فقد فيه الإنسان أهم خصيصة، وهي حرية الإرادة، فهو عالم جبري لا يعدو فيه قدر الإنسان ريشة تحركها الرياح أين شاءت وأنّى شاءت.

إن "المدينة الفاضلة" للملحد هي عالم بلا فرح؛ لأنها بلا حزن، وهي عالم بلا نجاح، لأنها عالم بلا فشل؛ إذ يدرك الإنسان منذ بداية فعله أنه سائر إلى الفوز دون ريب؛ فيجد بذلك لذة الفرح بانتصاره على فرصة الفشل، وهو عالم لا يستشعر فيه الإنسان معنى الصحة والعافية لأنه. لا يعلم أن هناك مرضًا. وأذى. هو. ببساطة،. عالم. ميت بلا حركة. عاطفة ولا حركة إرادة، عالم بلا أمل، وبلا شوق، وبلا هدف؛ لأنه عالم بلا فشل وبلا طموح؛ فكل ما يريده الإنسان يحصده في حينه. **إن الحياة كما هي في عيني الملحد، بحلوها ومرّها، أعظم إيلاما من الشرور في عيني المؤمن.**

ختامًا؛ <u>فإن عصارة المقال، هي:</u> هذا الكون بشروره، على تعدد أنواعها ودرجاتها، هو ما يتوقعه المؤمن بإله قدير عليم رحيم، خلق الإنسان على الصورة التي جاء بها

القرآن، وللحِكَم التي أوردها القرآن، ولغايات أوردها القرآن، ولذلك لا يجد المسلم نفسه في مأزق تصوري للألوهية أو لمعاني الحياة.